قصة قصيرة

الخيال

عبد الخالق الركابي

(١)

فجراً، حيث يستطاب النوم عادة، كنت أصحو علىٰ صوت جدّي:

- هيه... أنتم يا أهل الكهف، كفاكم نوماً... سيبلىٰ فراشكم لطول اضطجاعكم عليه!.

تلك جملته الأثيرة التي كان يصيح بها من خلف الباب، كلما جاءنا زائراً. وبنشاط لم يكن من دأبي كنت أنسل من فراشي، فأسير بقدمين عاريتين، مجنّباً نفسي التعثّر بما يعترض سبيلي بسبب العتمة التي لم تنقشع بعد، وسمعي مشدود لصرير الباب الذي تفتحه أمي. وعبر ذلك المستطيل المضاء بوهج الغبش الرمادي كنت أرىٰ جدي وهو يعقل فرسه قرب العتبة، مرخياً عنها حزام السرج، معلقاً برأسها مرشحة الشعير المعمولة من شعر الماعز.

وبمجياء غريب علىٰ رجل عجوز، كان يطرف بأجفانه ضاحكاً بهدوء وهو يدلف الىٰ المنزل، مجيباً علىٰ استفسارات أمي عن صحته وأحواله، متخففاً من أحماله بالتدريج: فيركن عصاه الغليظة خلف الباب، وعلىٰ مسمار في الحائط يعلق عباءته، وعندما يحاذي الديوان المفروش بالبسط ينزع عن قدميه خفيه المحبوكين من خيوط البرسيم، وازاء الموقد المحفور في الأرض يضع خرجة الصوفي المخطط، مسقطاً بهزة من رأسه غترته المرقطة، دون أن ينتبه لي، أنا الذي أتحصن بعتمة احدىٰ الزوايا مراقباً إياه بعينين ماكرتين، كاتماً ضحكة تزلزل جسدي الصغير سرعان ما تغدر بي وتنفجر، فأندفع نحوه بخطىٰ خفيفة وأفاجئه أثناء انحنائه، فأشبك ذراعي حول عنقه مستنشقاً رائحة البراري التي تفوح من جسده القوي. وكان جدي بدوره يشبك ذراعيه المديدتين حول جسدي محتضناً اياي وهو يفرد قامته، ليغرق رأسه في طاقيته البيضاء التي كدت أسقطها في اندفاعي الأخرق نحوه، لافحاً وجهي بأنفاسه الدافئة العابقة برائحة التبغ:

- ها... أيها الولد العجوز؟ الا تزال تبلل فراشك ليلاً؟.

وتلك هي جملته الثانية التي لا يمل من تكرارها. ويشفعها بمداعبة الزغب المنتشر أسفل وجنتي، والذي بسببه انما يلقبني بالولد العجوز.

علىٰ يمين الموقد، وسط سحابة غبار أثارتها الحشية التي ألقتها أمي علىٰ البساط، يتربع جدي ويجلسني علىٰ ركبته، بعدها يغفل عني تماماً ليبادل أمي، التي تعمد الىٰ تهيئة الإفطار، أحاديث لا تنتهي تدور حول القرية وحقله وخيوله، وأنا أتلهىٰ بالنظر إلىٰ وجهه عن قرب، متملياً بشيء من الدهشة عينيه الغائرتين تحت حاجبيه الكثيفين، ولحيته الخفيفة التي خالطها البياض، والتجاعيد والثنايا المتشابكة عبر سحنته الغامقة السمرة. كان يلذ لي أن أراقبه عن كثب وهو منشغل عني بجملة أشياء تتوزع بين مضغ الخبز وارتشاف الشايٰ والكلام دون توقف وملء الغليون بالتبغ راكناً إياه في زاوية فمه لتتصاعد منه سحب دخان تجعلني ألجأ للمكر، فأبالغ بالسعال لألفت انتباهه لي بعدما نسيني. وعندما أنجح بذلك أكون قد وقعت أسير نوبة سعال حقيقية تجعل جدي يربت علىٰ ظهري بغلظة هاتفاً بي:

- حا... حا... لقد غدوت حقاً ولداً عجوزاً!.

وما أكاد أسيطر علىٰ سعالي وقد اخضلت عيناي بالدموع، حتىٰ أفاجأ به وقد تخلل شعري بأصابعه وشرع يهز رأسي بعنف كأنه يعمد لتهشيم عنقي، مداعباً اياي بطريقته الخرقاء التي كانت الشيء السيء الوحيد فيه.

لحظتئذ يكون أبي قد استيقظ وشرع يشحط الأرض بخطاه المتعثرة من فرط النعاس، مرحباً بأبيه، سائلاً اياه عن صحته، فيكرر جدي جملته الثالثة الأثيرة لديه:

- الصحة من عند الله أيها الولد العاق!

فيبتسم أبي بهدوء وهو يجلس بجانبه، مداعباً اياه بادعائه ان تركه القرية وسكنه في المدينة لا يعتبر عقوقاً منه، انما جاء ذلك بحكم الضرورة، فالعمل في المدينة متوفر، والحياة أكثر يسراً، والأطفال بحاجة لدخول المدارس. ويجاريه جدي في مداعبته، فيلح في تقريعه:

- لقد هربت من القرية وكفى... وتركتنا نحن الشيوخ نرد عنكم غائلة الاعداء!

وهنا يتخلىٰ عن مرحه، ويستطرد بنبرة جادة متحدثاً عن عمليات تسلل جديدة جرت من خلف الحدود كانت نتيجتها سرقة ماشية بعض الفلاحين واحتراق بعض الحقول. وذلك ليس بالأمر المثير، فسبق وان حدثنا عن عمليات تسلل مماثلة جرت في الماضي. لكن الجديد في الأمر تأكيده بأن ثمة شائعة انتشرت بين الفلاحين تتحدث عن استعدادات

مربية تجري فوق الجبل المشرف علىٰ قرىٰ المنطقة. ويردف بنبرة خطيرة:

- مدفع واحد ينصبونه فوق الجبل كفيل بافنائنا عن آخرنا!
- جدي... خذني الىٰ الجبل!

أفاجأ بصوتي النحيل ينطلق رغماً عني غير آبه لتناقض طلبي المضحك مع جدية الموقف، فما زارنا جدي مرة الا وحدثني عن ذلك الجبل العجيب أحاديث تشحذ خيالي وتجعلني اتجول مغمض العينين عبر ممراته الوعرة التي يستحيل اختراقها، مطارداً حيواناته وطيوره الوحشية!.

- الجبل أكبر منك أيها الولد العجوز.. لكنني علىٰ كل حال جئتك بشيء منه!

يجيبني وقد استعاد مرحه السابق، فيسحب إليه الخرج القريب. ومن احدىٰ فردتيه يخرج أقراص جبن وقربة لبن رطبة. وحصيلة آخر عملية صيد قام بها تتوزع بين طيور الحجل والقطا والدراج. ومن الفردة الثانية يستل بأطراف أنامله كيساً منتفخاً يرميه بطريقته الفظّة في حضني. وما أكاد أشعر بشيء ما يتحرك في جوفه حتىٰ أقذف به بعيداً شاعراً بالزغب المنتشر أسفل وجنتي وقد قفّ رعباً. وازداد خوفاً عندما أرىٰ الكيس يختض على الأرض بعنف، وتصدر عنه وصوصات خافتة تجعل جدي يبدو وكأنه قد جن تماماً، فيقذف برأسه الىٰ الوراء مقهقهاً بانطلاق، حتىٰ يصبح بإمكاني رؤية حلقه المتورد الذي تتدلىٰ منه تلك الزائدة اللحمية الراعشة.

- ستبقىٰ ذلك الولد الذي يرعبه طنين ذبابة... هيا... كن شجاعاً وافتح الكيس بنفسك لترىٰ هديتي لك... والا لن أكون جدك بعد الآن!.

ويرفعني عن ركبته ليضربني علىٰ مؤخرتي. وبخطىٰ وجلة اتقدم من الكيس وقلبي يدق في صدري بعنف. وما أكاد أفتحه حتىٰ أفاجأ بطائر بحجم دجاجة يمرق من تحت أنفي ليتنقل بساقيه البرتقاليتين المصفرتين بوجل بين أرجاء الأيوان بحثاً عن مخبأ يلجأ إليه. وأمام جمال ريشه الرمادي المزرق الذي تعلوه مسحة عسلية تتخللها حزوز حنائية لا أملك سوىٰ أن أشهق مذهولاً، فيعقب جدي:

- أرأيت؟ أنه ليس سوىٰ فرخ طائر كديري... ولو ربيته لنما وأصبح كبير الحجم!

وبجدية مفرطة يتحدث جدي طويلاً عن هذا الطائر النفور الذي يستوطن ذلك الجبل القائم قرب الحدود، والذي يستحيل صيده، اذ أنه شديد الحذر لا يقرب البشر ابداً، ولا يترك الجبل الا عندما تضطره ثلوج الشتاء للنزول الىٰ السهل.

ذلك اليوم هو أسعد أيام حياتي تراني خلاله الاحق جدي بأسئلتي المتعلقة بكيفية تربية طائر الكديري هذا؟ وما نوع الحب الذي يأكله؟ وهل يشرب الماء كالدجاج قطرة إثر أخرىٰ أم يغترفه مثل الحمام؟ والا يحتمل أن يفترسه قط الجيران؟ وألا يطير عندما ينمو جناحاه؟ و... والكثير من الأسئلة التي لا يمل جدي من إجابتي عليها دون أن يكف عن اطلاق قهقهاته وتسميتي بالولد العجوز!

فجر اليوم التالي استيقظ مرعوباً علىٰ صوت جدي الذي يسحبني من ساقي، فيخيل لي للحظة خاطفة ان ما كنت أخشاه قد وقع، وان قط الجيران افترس طائري، لكنني أفاجأ بأن الأمر لا يتعدىٰ ان جدي يهدف لأن يفرقع قرب أذني قبلة الوداع.

(٢)

وهكذا، عندما استيقظت في احدىٰ زياراته علىٰ سحبه لساقي، مددت له خدي تلقائياً ليطبع عليه قبلة الوداع غير المرغوب فيها لأعود لمواصلة النوم. لكن الذي حدث أنه قرصني من خدي، وصاح بي:

- هيا أيها الولد العجوز... لقد كبرت علىٰ القبل، وآن لك أن تصحبني لزيارة القرية التي هجرها أبوك!

وعلىٰ الفور غادرني النعاس نهائياً. يأخذني الىٰ القرية!... هل يصدق ذلك؟ وتفرست في وجه أمي برجاء، فهزت رأسها موافقة. ودون تردد ركلت غطاء نومي، وتقدمت جدي مختطفاً في طريقي الخرج الخالي وعباءته المعلقة علىٰ مسمار، وصوته المرح يتعقبني وهو يخاطب أبي:

- أتراه أيها الولد العاق؟ إنه أفضل منك علىٰ أي حال، فهو يعرف كيف يتملقني!

ولجم الفرس، وشد الىٰ ظهرها السرج الذي فرش فوقه الخرج والعباءة... ودس قدمه في الركاب... وبخفة أدهشتني اعتلىٰ صهوتها ليتطلع اليّ من ذلك العلو الشاهق، ممسكاً العنان بيده اليسرىٰ، مفرقعاً لي بأصابع يده اليمنىٰ، هاتفاً بي دون ان يكف عن الابتسام:

- هيا... أرني شطارتك في ركوب الخيل!

وكدت أصرخ به: ما الذي دهاك يا جدي؟ فلم يسبق لي أن رأيت فرساً الا وتفصلني عنها مسافة تجعلني بمنأىٰ عن رفساتها القاتلة، فأنى لي أن أركبها اذن؟ لكنني خشيت ان يتراجع عن أخذي معه. ثم انه لم يمهلني، فقد انحنىٰ باتجاهي حتىٰ كاد رأسه يمس ركبته. وأمسك بذراعي طالباً مني إيجاد الوسيلة الكفيلة برفعي للأعلىٰ، فسارعت باسناد قدمي اليسرىٰ علىٰ قدمه اليمنىٰ الثابتة في الركاب. لكنه نهرني بقوله:

- ليس هكذا... ففي هذه الحالة ستجد نفسك وقد ركبت الفرس بشكل مقلوب! فأسندت قدمي الأخرىٰ علىٰ قدمه. وكتمت أنفاسي وقد شرعت بالصعود حتىٰ شعرت بالدم وقد أوشك أن ينفجر من وجهي. ولحظة عبرت بساقي صهوة الفرس ووجدتني قابعاً في حضن جدي الذي ضمني اليه بذراعه، أطلقت أنّة ارتياح. وبرفق جلد جدي رقبة الفرس بالعنان، فقعقعت حوافرها علىٰ أرض الزقاق ببطء ووقار. ومن الخلف جاءني صوت أمي تطلب مني أن أنتبه لنفسي، فنهرها جدي مؤكداً لها بأنها ستفسدني بتدليلها لي، ولن تجعلني أصبح رجلاً في يوم من الأيام!

ما كدنا نترك المدينة وراءنا متوغلين عبر الدروب الممتدة وسط الغابات حتىٰ لكز جدي الفرس في جنبيها، وبخفة عجيبة تحول سيرها النشط الذي كان يسمع خلاله نقر حوافرها الأربعة، الىٰ خبب سريع تتخلله نقرتان متعاقبتان. وعاد جدي يلكزها ثانية، فوثبت الفرس

سابحة في الهواء وصدى نقر حوافرها يتردد بوضوح عبر الأشجار المتكاثفة من حولنا، فشهقت مرعوباً وقد أمنت بأنني سأسقط لا محالة. ودوّت قهقهات جدي، الذي كرهته لحظتئذ، ملء سمعي...

- أثبت.. والا لن تصبح خيّالاً أبداً!

ولكن كيف لي أن أثبت وأنا أرى الفرس وقد خفضت رأسها وكأنها تطعن به الريح، تاركة عفرتها المسترسلة تتطاير أمام عينيّ المملوءتين بالدموع، وذرى الاشجار تتقاذف في شتى الإتجاهات، وزرقة السماء تنسحب من فوقنا بشكل مدوخ؟! وعاد جدي لصراخه وقد أحكم من تطويقي بذراعه:

- لا تخف.. فهي فرس عربية أصيلة من صنف كحيلة العجوز عدوها رهوان... ولن تغدر بفارسها أبداً!

وانفتحت الغابات أخيراً أمامنا عن حقول قمح تنداح على مدى البصر، وللمرة الثانية شهقت، ولكن لروعة ما رأيت هذه المرة، فبعيداً عند حافة الأفق، تحت غيمة رصاصية صبغت الشمس التي لم تشرق بعد، حاشيتها السفلية بوهج ذهبي، امتد الجبل شذري اللون وقد اعتلت ذراه المستدقّة مسحة وردية!.

- أتذكر؟ ذلك هو الجبل الذي طلبت مني أن آخذك إليه قبل سنوات!

لكنني فكرت مع نفسي بأنه ليس كما صوّره لي جدي بأحاديثه تلك عن كونه مكمناً موحشاً ينصب فيه الاعداء أسلحة الدمار، فقد بدا لي جميلاً بشكل يستدر الدموع!... وكأن جدي قرأ ما دار في خاطري فقد صاح:

- لا يغرنك منظره، فهو يبدو جميلاً عن بعد، ولو رأيته عن قرب لما وقعت عيناك سوى على ممرات عمودية وعرة تمتد عبر كتل صخرية جهمة لا يقربها غير الماعز الوحشي وطيور الكديري والرخمة ومدافع الاعداء... ولا شيء غير ذلك!

في القرية بهرني بيت جدي بفنائه الواسع المزروع بالأشجار، وحجراته العديدة ذات السقوف الخفيضة التي تعلو أبواب بعضها رؤوس وعول بقرون معقوفة، وحيواناته المنتشرة في شتى الاتجاهات، ودجاجاته وطيوره التي لا يخلو شبر واحد منها. لقد بهرني ذلك البيت العجيب بسحره الأخاذ، فنسيت الجبل تماماً.

(٣)

غير أن الجبل بقي يشحذ خيالي كلما حملني جدي معه على ظهر الفرس - في زياراتي المتباعدة للقرية - وانفتحت الغابات عن كتلته الشذرية القائمة عند حافة الأفق. وحلّ يوم خُيّل لي أن جدي قرر أن يحقق ذلك الحلم الذي راودني طويلاً، فيأخذني الى الجبل، ففي فجر أحد الأيام - عقب نهار كامل انهكني التجوال خلاله بين حجرات منزله العجيب - أجفلت من نومي على سحبه لساقي. وقادني من يدي، وأنا أتعثر من فرط النعاس، ليسكب على وجهي ماءً بارداً جعلني أقفز مذعوراً. لكنه اكتفى بأن ضحك بهدوء وأومأ لي طالباً مني أن أتبعه، وتبعته كالمأخوذ، فإذا به يتقدمني الى اسطبله القريب من بيته، والذي لا يخلو عادة من ثلاثة أو أربعة خيول يقتنيها وهي لا تزال مهوراً صغيرة حيث أنه يعتني بها ويربيها ليبيعها فيما بعد بسعر مناسب. وامتلأ منخراي برائحة الدمن الزنخة، وأدارت الخيول رؤوسها باتجاهنا مطرطقة بآذانها المنتصبة، وضربت الفرس الشقراء التي اعتاد جدي ركوبها، الأرض بحافرها، وصهلت برفق كأنها ترحب بنا. ولفترة طويلة غفل عني جدي تنقل خلالها بين خيوله وهو يربت على أعرافها ونواصيها الراعشة، ويمسد لها بحنان غريب جباهها وخطومها الدافئة، مبربراً لها بكلمات غامضة. وأزعجني وقوفي هناك دون عمل مكتفياً بالتحديق حولي ببلاهة، فسارعت بدس طاسة نحاسية في كيس مركون الى جدار معلق يحتوي على شعير مجروش. وكان جدي قد انتبه لحركتي تلك فرماني بنظرة ساخرة:

- أتريد اطعامها ايها الولد العجوز؟.

فحركت رأسي بالإيجاب.

- لو كنت تنشد مساعدتي فهات السرج.

وجئته بالسرج الذي انهمك بشدّه الى صهوة فرسه.

- لاتنس بأن الخيول تسقى أولاً قبل أن تطعم!

قالها بصيغة من يلقي درساً شفعه بحديث طويل عن كيفية تربية الخيول، أنهاه بقوله:

-... الخيول كالبشر فيها الأصيلة التي لا تغدر بصاحبها، وفيها الوضيعة التي ما تكاد تغفل عنها حتى ترفسك ما بين عينيك... وأنا ما اقتنيت في حياتي سوى الأصناف الأصيلة منها... ولدي أوراق تثبت ذلك... فهذا الجواد الأدهم الذي يبدو كأنه قطعة من الليل (صقلاوي). وتلك الفرس الشهباء الموشومة في جبينها تنحدر بأصلها من (حمداني الفهد). وذلك الحصان الأبيض بذنبه ونواصيه وعفرته السوداء - وهو لون نادر بين الخيول - يعود بأصله الى (هدبه نزحي). أما هذا الكميت ذو القوائم المحجلة بالبياض فمن أصل (شويمة سباح)...

وغادرنا الإسطبل واعتلينا صهوة الفرس ساحبين وراءنا أعنة الخيول الأربعة، وجدي لا يكف عن مواصلة الكلام:

-... لقد ربيت أغلب الأصناف الأصيلة النادرة سوى صنفين اثنين لم أقع عليها بعد، هما (عبيه الشراك) و(معنق حدرج).

ورغم أن تنازله بمكاشفتي أسرار عمله الذي يعتز به - كأنني ندٌّ له - وسرد أصول خيوله الغامضة على سمعي قد أدهشتني بعض الشيء - لا بل ملأني كبرياء - لكن الذي بهرني حقاً هو أنني اكتشفت أن وجهتنا ليست سوى الجبل نفسه!.... وكنا قد غادرنا القرية، وأمامنا بالضبط انتصب الجبل بكتلته الشذرية التي خددتها شمس الصباح بلطخات بنفسجية ووردية. ورغم أننا كنا قد قطعنا باتجاهه مسافة لا بأس بها، لكنه بقي بعيداً كأننا لم نقترب منه قيد شعره، فعيل صبري تماماً ولم أملك سوى أن أجازف بسؤاله:

- جدي... أين نحن ذاهبان؟

لكنه، كعادته عندما يجابه بسؤال غبي، لم يتنازل بالرد علي. وتوغلنا عبر أرض رملية احتلتها أشجار أثل رمادية وأدغال صفصاف وغرب لتقف الفرس بنا ازاء الوادي الكبير، هذا الوادي الذي عمقت السيول الموسمية مجراه الذي يبدأ من التخوم السفلية للجبل،

وينحدر في طريقه عبر الحقول والقرى والمدينة أيضاً. وتلألأت، تحت السماء الزرقاء، مخاضات مياه توزعت في القاع الفسيح المفروش بالرمال والحصى، تحف بها شجيرات طرفاء وقصب اصطبغت أوراقها الغبراء بحمرة الطمي حيث سيول الشتاء تمخر بمياهها الغرينية المعتكرة الهائجة ملء الحافتين البعيدتين، لتنحسر بعد أيام مخلفة وراءها طبقات غرين غطت النباتات التي مالت رؤوسها باتجاه التيار.

وتلكـأت الفرس ازاء الحـافـة الشديـدة الانحدار، ومن ورائهـا تزاحمت الخيول مراوحة في مواضعها وهي تطرطق بآذانها المنتصبة، محدقة برهبة في ذلك المنخفض الشاسع. ولأول مرة رأيت جدي يقسو على فرسه، فيمعن في لكزها، صارخاً بها حيث الاصداء ترجعت بين الحافتين النائيتين. رأحنت الفرس رأسها بين قائمتيها الاماميتين لتنحدر بحذر للأسفل. وما كادت تقطع مسافة قصيرة حتى اندفعت بكامل ثقلها ساحبة وراءها الخيول التي تطاير من تحت حوافرها الصاخبة شلال من الحصى والرمال، وأنا موشك على الاغماء رعباً وقد أيقنت من أنني سأنزلق بين لحظة وأخرى من فوق عنق الفرس وتدق رقبتي، فحاولت موازنة جسدي بالرجوع الى الخلف حتى التصقت بجدي تماماً، وتجاوزنا المحنة بسلام. وطرطشت المياه مدومة حول قوائم الخيول التي تركها جدي تطفيء ظمأها وهو يصفر لها. واغترفت الماء طويلاً. ومن وقت لآخر كان أحدها يرفع رأسه بغتة، محدقاً بفضول في شتى جنبـات الوادي، محركـاً أذنيـه القصـيرتين المنتصبتين بقلـق، متصيداً الاصوات الغامضة التي لا تتناهى لأسماعنا نحن البشر.

- والآن هيا اقفز!

لحظتئذ آمنت بأن جدي قد جُن تماماً، وإلاّ فلِمَ القفز؟ لكنه لم يمهلني، فقد لجأ لمداعباته الخرقاء، ودفعني بغلظة، فتشبثت بقربوس السرج وقد انزلق جسدي للأسفل، وقدمي التائهة في الفراغ تبحث دون جدوى عن شيء ما تستند عليه، و... هوب... طش.... غمرتني المياه فشرقت بها. غير أن جدي لم يأبه لي وقد وقعت أسير نوبة سعال، انما فوجئت به يقذف نحوي بفرشاة كادت تشج رأسي. وهبط عن فرسه صافعاً على كفلها، فاتخذت طريقها خارج المخاضة.

ودون ان يبادلني كلمة واحدة أمسك بأحد الخيول وانهمك بصب الماء على جسده وتدليكه بفرشاة لا أعلم من أين استلها. فاضطررت لمجاراته وأنا أحلف في سري بأغلظ الإيمان بأنني لو عدت سالماً الى المدينة لامتنعت الى الابد من مصاحبته الى القرية!

وغسلنا الخيول التي اتخذت طريقها واحداً إثر الاخر خارج المياه والبخار يتصاعد من أجسادها الصقيلة اللامعة التي كانت تهزها بعنف نافضة عنها البلل. وتبعتها بدوري وأنا أتجنب النظر نحو جدي الذي أمسك بعنان أحد الخيول، وانتزع من شجيرة طرفاء غصناً طرياً فرقع به في الهواء... فيف... وشرع الحصان بالدوران حوله على الأرض الرملية، هذا الدوران الذي كان يزداد سرعة كلما زاد جدي من جلد الهواء، حتى حلت لحظة استحال عليَّ فيها التمييز بينهما خلال ذلك الدوران السريع المدوخ الذي أصابني بالدوار.

وأخيراً، بعدما انتهى جدي من ترويض الخيول، أبى أن يثبت جنونه بشكل نهائي، فقد فاجأني بقوله:

- اسمع أيها الولد العجوز... ما رأيك لو أسلمتك عنان أحد الخيول ووضعتك على صهوته العارية وصفعته على كفلة لتكشف بنفسك طريق الجبل الذي صدعت رأسي بسؤالك عنه؟! لم أجبه، والحقيقة انني لم

لم أجبه، والحقيقة انني لم أملك القدرة لحظتئذ على النطق، لأنني أدركت بشكل لا يدع مجالاً للشك، أي مجنون عريق هو جدي اللعين هذا!... الشيء الذي أتذكره الى الان هو أنني أقسمت في سري للمرة الثانية بأنني - لو كتب الله لي النجاة - لن أصحبه في زيارة القرية حتى ولو أعطاني كنز قارون!

(٤)

- هيه.. أنتم يا أهل الكهف، كفاكم نوماً... سيبلى فراشكم لطول اضطجاعكم عليه!

صحوت على صوت جدي الذي ما ان لمحني حتى هتف بي:

- هذه المرة ستطول اقامتك معي في القرية لبضعة أيام!

وشرع يتخفف من احماله ليتربع في النهاية أمام الموقد العامر بالجمر.

- ستصحبني في رحلة!

رحلة في مثل هذا الجو؟ ورميت بنظرة شاردة نحو فرسه الظاهرة من خلال الباب المفتوح وقد أرخت أذنيها باستسلام تحت رذاذ ناعم كان يهمي بهدوء بعد امطار عاصفة تساقطت طول ثلاثة أيام متعاقبة. ولم استطع الامتناع من أن أسر لنفسي ساخراً: يا له من وقت مناسب للسفر!... ورغم ذلك حركت رأسي موافقاً وقد نسيت قسمي القديم بأن لا أصحبه بزيارة القرية حتى ولو أعطاني كنز قارون!

عندما غادرنا المنزل صباح الغد اردفني جدي وراءه. وكان النهار صحواً، لم يبق من الامطار العاصفة سوى بلل يعتلي الأرض وبرك مائية ركدت في بعض المواضع. وما كدنا نتوسط الغابات حتى أمسكت بجدي من خصره وسبقته بأن لكزت الفرس في جنبيها، فانطلقت تعدو سابحة في الضباب المتكاثف. وترجعت اصداء قهقهاتنا من حولنا بوضوح، وأنا أشعر بالهواء البارد يلفح وجهي حتى أفقدني الاحساس بأنفي.

لم نتوقف في القرية سوى لوقت قصير ملأ جدي كيسه بالتبغ ودس مسدسه في جيبه. ومرة أخرى خُيل لي أن وجهتنا ليست سوى الجبل الذي اختفى تماماً وسط سحب الضباب. ولم يكاشفني جدي بسر رحلتنا المباغتة تلك الا بعدما تناهى لسمعي هدير سيل مكتوم فاض به الوادي الكبير قبل يوم:

- اسمع أيها الولد العجوز... هناك صفقة لا تعوض تتكون من بضعة خيول ضمنها مهران ينحدران بأصلها من ذينك الصنفين اللذين حدثتك عنها قبل أعوام...

وبعدما انفتحت اشجار الأثل البليلة عن منظر المياه المعتكرة الهائجة الممتدة تحت الضباب على مدى البصر، استطرد بصوت اعلى:

-... ولا يحول بيننا وبين تلك الصفقة سوى هذا السيل!.

وقام بايماءة استصغار نحو ذلك السيل الهائج كأنه جدول يمكن اجتيازه بقفزة واحدة!... ولم أتردد سوى للحظة خاطفة أحكمت

بعدها من تطويقي لخصر جدي وقد آمنت بأنه أعداني بجسارته المتهورة.

- ركز بصرك على ظهري...

صرخ وهو يلكز الفرس برفق، ورغم ايماني بأن ما نحن مقدمان عليه محض جنون مطبق، لكن الأمر كان قد أفلت من يدي، فقد أسلمت الفرس قيادها للتيار المدمر الذي شرع يتداوم بصخب حول قوائمها غامراً إياها بأطراد. وتعثرت بغتة، فكدنا ننخلع عن صهوتها، لكنها عادت توازن نفسها وبدت كأنها تمخر جانبياً عكس التيار، فتطلعت برعب حقيقي نحو المياه الغرينية المزبدة التي بدأت تلطم ساقيّ العاريتين، شاعراً يضيق في صدري.

- جدّي... لنرجع.. لن أستطيع الاحتمال!.

- ألم أقل لك ركّز بصرك على ظهري؟ إنه الدوار... اغمض عينيك جيداً!.

صاح بصوت جبار حاول أن يعلو به على هدير السيل الذي أطبق على فرسنا التائهة وسط خضمه المتلاطم. وأغمضت عيني. لكن إحساسي بالدوار تضاعف، فصرفت على أسناني وأنا في ذروة نقمتي على ضعفي. وركزت بصري على ظهر جدي مغترفاً الهواء بفمي ومنخري، والمياه تعلو فخذي دون توقف، ومن جديد تعثرت الفرس. وأحسست بقوائمها وقد انخلعت من القاع المختفي في الاسفل وجرفها التيار الحاد ببساطة عجيبة، فعدت اغمض عيني في انتظار النهاية التي لا مفر منها، ولم افتحها الا على صهيل الفرس التي عادت تمس بقوائمها القاع، فلم أصدق نفسي وأنا أرى المياه تنحسر حتى غدت ضحلة تطرطش تحت حوافر الفرس التي نفخت من خطمها بفخر وهي تتخذ طريقها نحو اليابسة.

سارعت بالهبوط واسناني تصطك في فمي، ليس بسبب البرد بقدر ما كان بسبب تلك النشوة الغريبة التي اكتنفتني وأنا اتطلع عبر المياه المزبدة نحو اشجار الاثل المنتصبة على الحافة الأخرى للوادي كأنني ودعت عندها طفولتي الى الأبد!

(٥)

على غير العادة، جاءنا جدي ونحن على سفرة العشاء.

- هيا اسرع... لقد سبقونا بساعتين كاملتين!

صاح بي وهو يشكم فرسه المضطربة تحته. ولم تفتني ملاحظة انه كان متنكباً بندقيته، فسارعت بلف رأسي بكوفية، وشد حزام الى خصري أثقلته بخنجري الكديمي الضخم. وقفزت وراء جدي على صهوة الفرس التي انطلقت بنا من فورها، دون أن أضيع وقتي بسؤاله عن مغزى كلامه ذاك، ومن هم الذين سبقونا؟ فالسنوات الطويلة التي مرت على علاقتي به عودتني على كيفية التعامل معه.

- لا شك أنهم من الجانب الآخر للحدود، فقد ازداد تسللهم وكثرت سرقاتهم في الفترة الأخيرة!

كما توقعت أوضح لي الأمر من تلقاء ذاته ونحن نخترق الغابات المعتمة التي ضجت بعويل بنات آوى وصرير الجنادب.

-... كنت على موعد مع شخص أبدى رغبته بشراء ذينك الجوادين اللذين كانا مجرد مهرين يوم ابتعتها في تلك الرحلة التي صحبتني فيها... وعندما عدت رأيت الاسطبل خالياً.

وبقي وقع حوافر الفرس يتردد من حولنا بإيقاع مدوٍ وهي تشق طريقها وسط الظلام بسرعة خارقة.

-... سنتبعهم من أقصر الطرق لندركهم قبل اجتيازهم للحدود لأن الأمر يستحيل علينا اذا ما توغلوا في شعاب الجبل.

وزاد كلامه الأخير من حماسه فغرز قدميه بقوة في جنبي الفرس التي سرعان ما أوصلتنا للوادي الكبير، فلازمنا الحافة اليسرى لمسافة طويلة صامتين، وبغتة شكم جدي الفرس حتى كاد يهشم عنقها وركن راحته خلف أذنه.

- أتسمع؟!.

ولم أسمع أيما شيء سوى صفير الريح وهي تمر بأشجار الاثل المعتمة.

- ألم أقل لك بأنهم من الجانب الآخر للحدود؟ ها هم امامنا يخترقون بطن الوادي في طريقهم الى الجبل... اسمع... لازم أنت هذه الحافة، بينما سأتجه أنا نحو الحافة الثانية، وعندما تسمع صوت اطلاقة أكثرْ من الصخب والضجيج وادفع بكل ما يقع تحت يدك من حجارة وحصى نحو بطن الوادي.

وترجلت عن صهوة الفرس التي انحدر بها جدي للأسفل، وتحت سماء مزدانة بآلاف النجوم اتخذت طريقي نحو الجبل. وبعد وقت قصير انتبهت لأصوات مكتومة تتصاعد على يساري من بطن الوادي، وفي اللحظة ذاتها دوت اطلاقة، فتلمست الأرض المخصبة من حولي دافعاً سيل حصى انحدر للأسفل بزئير مدوٍ، بدا الأمر وكأن جيشاً بكامله شرع بالتحرك، وترددت بضعة أصوات مرعوبة أعقبها خبب سريع، بعدها هدأ كل شيء.

انحدرت نحو بطن الوادي واهتديت لجدي عن طريق جمرة غليونه.

- ها؟... ابشر يا جدي!.

وبطبيعة الحال لم يجبني على سؤالي ذاك. انما أومأ بغليونه لاتجاه ما حيث شخصت بصعوبة - وسط مخاضة رقطتها النجوم - الجوادين وهما يغترفان الماء، وبالقرب منها بغلة قميئة لا شك ان اللصوص خلفوها وراءهم.

في طريق العودة اسلمني جدي بصمت عنان احد الجوادين، فاعتليت صهوته العارية دون تردد.

(٦)

عندما تقرر أن أكون دليل المجموعة فكرت بأنه لا مفر من أن أمرّ بقرية جدي، ومن هناك اتجه بهم نحو الوادي الكبير حيث سنتمكن تجنب قصف مدافع الاعداء الذي لم يتوقف منذ أيام، والالتحاق بالوحدة التي سبقتنا الى الجبل وذلك باجتياز أقصر الطرق وأكثرها أماناً، وعند مروري بباب بيت جدي الموارب شكمت جوادي وناديته:

- هيه... أنتم يا أهل الكهف، أمازلتم تنامون مبكرين كالدجاج؟!

وفتح جدي الباب يسبقه نقر عصاه علىٰ الأرض، ورفع رأسه مضيقاً عينيه تحت وهج الشفق الحمر، وتفحص ملياً ملابسي الكاكية المرقطة قبل أن يطلق قهقهته الغابرة التي لم يغيرها كرّ السنين.

– يا الله... لقد كبرت... كبرت حقاً أيها الولد العجوز... لكنك لا تزال في نظري ذلك الغلام الذي ربيته علىٰ يدي هاتين!

– ليس علىٰ يديك بالضبط يا جدي.. انما ربيتني علىٰ ظهور خيولك!

ووسط دهشة رفاقي المقاتلين الذين لبدوا واقفين قرب بغالهم المحملة بصناديق الذخيرة، انطلقنا نقهقه لفترة طويلة حتىٰ اننا أعديناهم بالضحك. واستغفر جدي الله بصوت خفيض. ومسح عينيه بظاهر يده ليجول ببصره هذه المرة بيني وبين المقاتلين والبغال المحملة، فسبقته موضحاً وقد أدركت ما دار في ذهنه:

– اننا في طريقنا الىٰ هناك!

وأومأت نحو الجبل الذي غشيته عتمة الغروب الزرقاء، وثمة مدمة مدافع مكتومة تتصاعد منه، فهزّ رأسه مستحسناً. وعاد يتفحص حصاني متلمساً ناصيته وخطمه وعفرته المتهدلة الىٰ الجانب لأيمن من رقبته.

– انه جواد عربي أصيل... لا خوف عليك فوق صهوته!

فترجلت عنه وأسلمته عنانه.

– على كل حال أدىٰ ما عليه، وسيبقى أمانة لديك حتىٰ عودتي، اختراق شعاب الجبل الوعرة، كما تعلم، يستحيل علىٰ صهوة جواد، ولا د من الاستعانة بالبغال.

– سأعتني به بالتأكيد... ولو أن القرية لم تعد مأمونة، فمنذ أيام هم يصلوننا بنيران مدافعهم... انظر...

وأومأ بطرف عصاه نحو فجوة معتمة كانت في يوم ما بيتاً، كما أشار نحو اسطبله الذي تهدمت واجهته.

– وحتىٰ الاسطبل لم يسلم من مدافعهم... لكنه لله الحمد كان خالياً مدما تركت تربية الخيول منذ سنوات.

ودعت جدي. وقبل أن انعطف بمجموعتي نحو البراري التفت الى وراء، فرأيته تحت العتمة الشفيفة ممسكاً بعنان الجواد كما اعتدت ان أراه طوال سنوات طفولتي، فلم أملك سوىٰ أن أصيح به بصوت متهدج من فرط الانفعال:

– جدي... لن يكون الجبل أكبر مني هذه المرة... وسآتيك بطائر كديري منه!.

لم يجبني، انما سمعته وهو يضحك بهدوء.

(٧)

رغم أن غيبتي عن جدي طالت مدة شهرين، لكنني عندما زرته فوجئت بالجواد وهو في ذروة نشاطه يرعش جلدته الصقيلة كأن البروق الزرق تتوامض عبر جسده الرشيق، ويقوس عنقه العضل نافخاً من خطمه بنفاد صبر، فأيقنت بأن جدي لم يتركه يرتكن للكسل طوال تلك الفترة. أما كيف عاد يجتاز طريق الوادي الكبير ليعتني بترويضه رغم كونه قد هرم تماماً؟ فذلك ما حيرني حقاً!.

أمسك بالعنان وأنا أعتلي صهوة الجواد الذي شرع يراوح من تحتي وهو علىٰ أهبة الاستعداد للانطلاق من فورة. وتساءلت بمكر وأنا أحدق ملياً نحو الجبل الذي كان يتوهج تحت شمس الظهيرة وردي اللون:

– ألا يزالون يصلونكم بنيران مدافعهم يا جدي؟

فحدق في الاتجاه ذاته. بعدها استدار ليتطلع نحو تلك الفجوة التي أحدثتها قنابلهم في الأرض، والتي نمت فيها الاعشاب المزغبة وغطتها بكاملها وأجابني:

– الجبل قد هدأ تماماً، حتىٰ انه بدأ يغريني بأن اجازف بارتقائه ذات صباح لاقتناص طيور الكديري.

ودق بطرف عصاه الأرض كأنما ليتأكد من متانتها. واستطرد وهو يبتسم عن لثة متوردة:

–... ولكن أنّى لي ذلك وقد غدوت بسيقان ثلاث؟ على كل حال البركة فيك ايها الولد...

ولويت عنق الجواد نحو خط الأشجار في طريقي الىٰ المدينة، وأنا أكمل في سري (العجوز)، لكن صوته تناهىٰ لسمعي من خلال الخبب السريع:

–.. المقاتل!

بغداد

صدرت حديثاً

من منشورات دار الطليعة

خطوط الطول.. خطوط العرض (رواية) لعبد الرحمن مجيد الربيعي

أن تقنية «خطوط الطول.. خطوط العرض» تقنية صعبة لعبت في انجازها قدرات المؤلف وخبرته الطويلة في مجال الكتابة القصصية... وانها مؤشر لما وصلت إليه الرواية العربية ضمن قتالها وتحديها من أجل ان تبتعد لتعانق التجارب الروائية المتقدمة في العالم).

ياسين رفاعية – عن مجلة النهار العربي والدولي